الكسابة: الوجه الآخر للعلاج النفسي الجماعي للاضطرابات النفسية للمرأة
دراسة نفسية- أثنوغرافية تحليلية بمدينة مستغانم

***

د. كريمة علاق•/جامعة مستغانم

مقدمـــــــــة:*

تعد "المعتقدات والخرافات الشعبية منفذا من المنافذ الأساسية لدراسة عقلية الشعوب ومدخلا مهما من أجل اقتحام فظاءاتها العقائدية والفكرية وممارساتها الطقوسية الباطنية والمختلفة منها والظاهرة الجلية، فهي تترجم أيضا مستويات التفكير الشعبي وحركيته داخل فضاءات مادية وروحية خاصة" (سعيدي، 1995، 76)

وجاء في قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور أن العادات الشعبية "هي أساليب الشعب وعاداته، بمعنى القواعد المستترة للسلوك، التي يؤدي خرقها إلى الصدام مع ما يتوقعه رأي الجماعة" (هولتكرانس، 1973، 246)، وتدخل هذه العادات الشعبية فيما يسمى أيضا بالتراث الشعبي وهي كلها مفاهيم تندرج تحت علم الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا.

ويشير اسم التراث الشعبي إلى أننا نتناول هنا تراثنا شفهيا فينتقل من جيل إلى جيل داخل الشعب. (جلاله، 2001)،كما يتضمن التراث الشعبي أيضا "اعتقادات متنوعة منها الاعتقاد بالكائنات العلوية والسفلية كالجن والعفاريت والهواتف وأرواح الموتى وأرواح الأشياء وكيفية تفاعلها مع الإنسان حلولا به أو خروجا منه (عبد الغني،ب.ت،11).

وأصبحت المعتقدات الشعبية على رأي نجلاء خليل (2006) "موروثات احتلت عقول الناس وشغلت حياتهم، وشغفت بها نفوسهم وملكت قلوبهم وصارت معتقدات، وأضحى التسليم بها

•– عضو في مخبر البحث في علم النفس وعلوم التربية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية- جامعة مستغانم-.

• - **Abstract:** The aim of our research is to study the impact of 'el kessabah' as popular belief and practice purely feminine celebrated in early spring, especially in March 21 each and its influence on the psychological health of mostaganem's women, To disclose the mysteries of these ritual practices, we adopted the approach ethnological 'which is based on the analysis and description of this phenomenon based on the descriptive method and using the following tools: Participatory observation,The Interview, photography and video and voice recording area on a sample that is : " any woman who is at the scene of the practice of 'el kessabah' " Successful we have the following results:

1. 'el kessabah' is one of the rites of luck for unmarried girls are whatever age.

2. 'El kessabah' is a special collective rite to / for women as symbols translate group therapy to reduce mental disorders that knows the unmarried girl suffering from anxiety due to the specificity of Mostaganem's society in part ; and the other part as a cathartic method associated with purification rituals groupal to sublimate their stress by pleasure.

Keywords: Popular belief, practice rituals; psychological disorders; group therapy; psychology of women

والخضوع لحكمها، من المسلمات والبديهيات التي لا يمكن أن يرقى إليها الشك، وقد أخذت هذه المعتقدات سبيلها إلى قلوب الناس ونفوسهم، عامتهم وخاصتهم، منذ بداية عمرها الطويل، في تعاقب الأجيال وتداول الأزمنة حتى رسخت في الوعي وأصبحت جزءاً هاماً من الوجدان الشعبي. (عبد العظيم، 2013) إلى درجة أن الشخص المعتقد قد" لا يعرف نسق الاعتقاد كله، بل يعرف فقط قشوراً من عنصر بسيط منه، وعليه أن يلتزم به، سواء كان على علم به أو دون علم" كما ذكر ذلك علي المكاوي (1982) (عبد العظيم، 2013).

1. إشكالية الدراسة: غالبا ما يكون الزواج كل شيء بالنسبة للمرأة، ويعتبر شيئا بالنسبة للرجل، وعليه، فإن هذا النوع من المشكلات يؤكد لنا أن المرأة الجزائرية تماما كما المرأة العربية مازالت محصورة في الأدوار التقليدية، وهي التي لها الغلبة، فدور الزوجة هو الدور الأول في حياة المرأة، وهو دور تعد له منذ أن كانت طفلة صغيرة.(عبد الباقي، 1981، بتصرف). فعملية التنشئة الاجتماعية التي تحيط الفتاة الجزائرية وعلى وجه التحديد الفتاة المستغانمية، هي من أهم العمليات تأثيراً عليها في مختلف مراحلها العمرية، لما لها من دور أساسي في تشكيل شخصيتها وتكاملها، وهي تعد إحدى عمليات التعلم التي عن طريقها تكتسب الفتاة العادات والتقاليد والاتجاهات والقيم السائدة في بيئتها الاجتماعية التي تعيش فيها.(دروس ومحاضرات في علم الاجتماع، جامعة القاضي عياض مراكش،2012، بتصرف). كما تحظى الفتاة بتربية مختلفة عن تلك التي يحظى بها أخوها الذكر، حيث تحاط منذ أن تكون طفلة بنوع من الاهتمام، وتلعب المرأة (الأم) دورا هاما في التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة حيث تعتبر بمثابة الحارس للقيم والتقاليد الاجتماعية، ويتمثل دورها في عملية الاستنساخ الثقافي(الحاج، 2011)، فتقوم بتحضير ابنتها منذ نشأتها حتى تصبح عروسا، وينعكس هذا على ما تقوم به أيضا من تحضير لجهاز ابنتها، وتخزين ما هو غالى ونفيس من لباس ومصوغات، كما تقوم بتحضيرها نفسيا لأن تكون جميلة ومرغوبا فيها، فهي تحضر لها ثيابها الخاصة للحمام منذ أن تبدأ في المشي، وهي نسخة من ثياب العروس لكن بشكل مصغر، وترافقها في خرجاتها العائلية وعند رفيقاتها سواء في الأفراح أو في الجنائز، وتحمسها على إبداء زينتها وتحرص على تجميلها،"كما تعلّم الفتاة الأعمال والأشغال المنزلية في سن لا يزال سن اللعب بالنسبة للذكر، وبالتالي تلتحق بجماعة النساء في سن مبكّرة وبصفة عفوية،(..) وكثيرا ما تحلم الفتاة في ظل هذا الوضع بالزواج معتقدة بأنه هو الحل لوضعيتها، ووسيلة لإبراز شخصيتها، فالمرأة التي تتزوج في تقاليد الأسرة المستغانمية هي الأوفر حظا للحصول على منزلة أفضل في نظر عائلتها وجيرانها، بل تحسد من طرف قريناتها على هذا الوضع، لذلك أضحت المرأة العانس وصمة عار في الأسرة والمجتمع، وهي عرضة لمختلف الاتهامات، ويصطلح على تسمية "بَايْرَة" كل فتاة تجاوزت سنا معينا دون زواج،(الحاج،2011، بتصرف).مما يدخلها في قلق داخلي وتوتر خارجي في وسطها العائلي ومحيطها الاجتماعي عند بلوغها السن المتعارف عليه للزواج، فتبقى في حيرة من أمرها، لماذا لم تتزوج لحد الآن؟،على اعتبار أن "القَاعْدَة في الدَّارْ عَارْ"، وهي العبارة التي تطلق على كل من لم تتزوج سواء كانت عاملة أو ماكثة بالبيت، وحتى بالنسبة للتي أنهت

دراستها الجامعية وتعمل وليس هناك ما يعطلها، ذلك أن القعود بالبيت لا يعني المكوث فيه وعدم الخروج منه فعليا ولكنه التعريف الكامن لكل من بقيت دون زواج، فالمرأة التي يرضى عنها المجتمع المستغانمي هي المرأة المتزوجة، أو "اللّي دَارَتْ لَفْريضَة" ويقصد بالفريضة هي الزواج.

وقد ذكرت الدراسة التي أجراها مركز الدراسات الاجتماعية في مصر وجد أن ظاهرة تأخر الزواج عند الفتيات تشكل (35%) من فتيات البحرين والإمارات والكويت وقطر، وبلغت في الجزائر نسبة(61.8%) وانخفضت في ليبيا حيث بلغت (30%) بينما بلغت (20%) في كل من السودان والصومال وسلطنة عمان والمغرب في حين إنها لم يتجاوز في كل من سوريا ولبنان والأردن (15%) وكانت في ادني مستوياتها في فلسطين (عرفات،2011)، وهكذا تشهد المرأة بالموازاة مع تقدمها في السن دون زواج اضطرابات نفسية وسلوكات متفاوتة في الدرجة يصعب فهمها عند تجاهل أهمية الزواج في تحقيق توازن شخصيتها، كإحساسها بالدونية وشعورها بالحيرة والتهميش والصراعات النفسية رغم نجاحها في حياتها المهنية .

ويأتي طقس "الكسّابة" ضمن الطقوس النسائية بامتياز على أساس أن من تقوم بإحيائه هن نساء مستغانم، في موعد محدد يكون كل بداية ربيع، فتقوم الكبيرات في السن من الجدات والأمهات ممن لديهن أو بقيت في أسرهن بنات دون زواج أو ممن تأخر زواجها، إلى التوجه فجر الحادي والعشرين من مارس (21 مارس) من كل سنة إلى محيط ضريح الولي الصالح سيدي المجدوب، وفي نية كل واحدة منهن قطف باقة من "الكسّابة"،وهي عبارة عن نبتة صغيرة ذات لون أصفر تشبه زهرة الياسمين الأصفر لكنها أصغر منها بكثير، ولها سيقان رقيقة، وليست ذات رائحة واضحة ولا عبقة، تزهر في الشهر الثالث من كل عام، وتنصح الممارسات ممن يحافظن على هذا الطقس أنه من الضروري قطف النبتة تلك بخاتم من ذهب يكون ملكا للبنت المقصودة بنية الزواج، تحملها الجدة أو الأم لتنزل بعدها إلى شاطئ سيدي المجدوب وبالضبط عند مكان يعرفه سكان مستغانم "بالڤلتة"، وهي مكان محيط بالصخور يشبه المستنقع، لتبدأ في التوغل إليه، وطبعا لا يمكنها ألا تتبلل بفضل عمل الأمواج من مد وجزر، حتى تصل إلى منطقة كثيرة الصخور المتآكلة بفعل الأمواج، تشبه المغارة في شكلها، وتقوم بإشعال الشموع ورمي الحناء والسكر مع التمني بزواج البنت المقصودة، لتطلق أثناءها زغاريد الفأل الحسن، ثم تعود إلى اليابسة بعد وضع النبتة في القطن مع التمر والحناء ويحتفظ بها في جهاز الفتاة غير المتزوجة أو في صندوق الذهب حتى يدور عليه الحول، إما بزواج الفتاة في تلك السنة أو بالعودة بنية أخرى وهي الإنجاب للتي تزوجت في السنة الفائتة، والكل يجمع أن كل من قام بقطف "الكسّابة" إلا وتحققت أمانيه،(علاق،مناد،2014،بتصرف)، فمن خلال ما سبق تتبادر إلى أذهاننا التساؤلات التالية:

1.أية علاقة تربط الكسّابة كطقس اجتماعي وزواج الفتاة في مستغانم؟

2. إلى أي حد يمكن "للكسّابة" كمعتقد شعبي وممارسة طقوسية أن تكون من استراتيجيات العلاج الجماعي لحل الأزمات النفسية وعلاج الاضطرابات النفسية عند الفتاة المستغانمية غير

المتزوجة أو المتأخر زواجها؟ بعبارة أخرى ما هي المظاهر النفسية- الاجتماعية التي يتم استخدامها عند ممارسة هذا الطقس؟

3. دواعي اختيار الموضوع: بعد اكتشافنا لهذه الظاهرة ودراستها من الناحية الاجتماعية -النفسية في بحث سابق (علاق ومناد،2014) راعى انتباهنا ما يلي:

1- تجلي بعض مظاهر الغموض وراء ممارسة هذا الطقس.

2- هناك من العناصر التي تواجدت في هذا الطقس والمرتبطة بالمرأة توحي بتناقض واضح بين ظاهر الطقس وهو استقبال الربيع وبين تفريغ الشحنات الإنفعالية والتنفيس عن الاضطرابات النفسية الكامنة التي لم تفصح عنها مبحوثاتنا، وهو ما شدنا إلى إعادة دراساتها من الناحية العيادية هذه المرة محاولين الكشف عن نوعها وعن تأثيراتها على الفتاة المستغانمية غير المتزوجة أو ممن تأخر زواجها.

4. أهمية الدراسة: وتبينها النقاط التالية:

1.الأهمية النظرية: تتناول هذه الدراسة ظاهرة طقسية يعرفها المجتمع المستغانمي منذ عصور، لكن لم يتم التطرق إليها من الناحية العلمية سواء الاجتماعية أو التاريخية أو الثقافية أو الأنتروبولوجية ولا حتى الإثنوغرافية من قبل، ما عدى الدراسة التي أنجزتها الباحثتين كريمة علاق ومناد سميرة حول الموروث الشعبي والهوية الوطنية لمستغانم،(علاق ومناد،2014).

2.الأهمية التطبيقية: وتكمن في النتائج التي ستسفر عنها هذه الدراسة حيث ستساهم في معرفة ما يلي:

أ. البعد النفسي الأكثر ارتباطا بممارسة النساء المستغانميات عموما والفتاة غير المتزوجة أو من تأخر زواجها خصوصا لطقس الكسّابة.

ب. الفوائد الثانوية *(Bénéfices secondaires)* التي يمكن أن تحصل عليها كل فتاة ممارسة لطقس الكسّابة، سواء كانت ممن لم تتزوج بعد أو ممن تأخر زواجها والمتمثلة في المشاركة الجماعية،التي تؤخذ مأخذ العلاج الجماعي عن طريق التفريغ وإسقاط المكبوتات.

ج. الوعي الجمعي للنساء الممارسات لطقس الكسّابة سواء ممن لم تتزوج بعد أو ممن تأخر زواجها، والذي يعني"مجموع المشتركات المعرفية المتواجدة في ذلك الطقس" وهو عبارة عن الأفكار والتصورات والمعتقدات والخبرات في علاقة تبادلية تخدم كل واحدة منها الأخرى.

5. أهداف الدراسة: ونلخصها في مايلي:

محاولة التحقق من صحة أو نفي ما افترضناه.

أ- محاولة الكشف عما بقي مجهولا في مجتمعنا من طقوس وممارسات ومعتقدات اجتماعية ودراستها دراسة علمية.

ج.التعرف على دوافع هذه الممارسات واستنباط الخفي منها وتأثيراتها على ممارسيها..

د- تسليط الضوء على المواضيع النفسية-الأنثروبولوجية التي يمكن أن يكون لها الأثر في عرقلة العمل السيكولوجي في مجتمعنا.

هـ. إعادة النظر في واقع التطبيق النفسي في مجتمعنا من خلال التمحيص في معتقدات أفراده وتحليلها مع دراسة أثرها عليهم للعمل على تغييرها أو تعديلها.

ز- الكشف العلمي لأشكال الممارسات النسوية الجماعية وتحليل عوامل تشكيل هذه الظاهرة محل الدراسة من الناحية الإثنوغرافية-العيادية.

6. التعاريف الإجرائية :وتتمثل في المفاهيم التالية:

1.مفهوم الكسّابة: هي طقس من الطقوس النسوية الجماعية التي تمثل مخزون الذاكرة الشعبية للمجتمع التي يحملها الناس عبر الأجيال لتخزين تراثهم المشترك واستحضاره عند الضرورة، فهي كما عرفها قاموس الأساطير الجزائرية (2005) "القصة التي تروى في شكل واقعي أو خيالي يصدقه الراوي أو لا يصدقه، من أجل التأسيس لعقيدة أو عادة أو طقس أو كلها معا، من أجل تبرير ضروب السلوك والقيم وتفسير أصول الشعوب والجماعات والمؤسسات أو الظواهر الاجتماعية والطبيعية تفسيرا لا ينتمي إلى التفسير التاريخي أو العلمي كما نفهمه اليوم،على أن تكون في منطقة أو أكثر من مناطق القطر الجزائري" (بوزيدة وآخرون، 2005، 14) والتي تهدف كل امرأة من خلال ممارستها إلى جلب السعد أو فارس الأحلام لكل غير متزوجة أو عانس والتي يتم إحياؤها كل سنة في الواحد والعشرين (21) من مارس بشكل جماعي.

2.العلاج النفسي الجماعي: ونتبنى التعريف الذي أعطاه المركز الفلسطيني للإرشاد بأنه" علاج موجه لمجموعة من الأشخاص يعانون من مشكلة أو اضطراب نفسي واحد أو يشتركون في اهتمامهم بموضوع معين، وهو علاج يوفر جوا من المؤازرة والدعم للشخص الذي يعاني من مشكل أو اضطراب نفسي معين من خلال الانخراط مع مجموعة من الأشخاص الذين يواجهون نفس المشكلة.وعادة ما يعمل بالإضافة لعلاج المشكلة على العلاقات بين الأفراد وإكسابهم مهارات أساسية في التكيف مع الأوضاع الضاغطة والاتصال فيما بينهم"(المركز الفلسطيني للإرشاد،2015).

3.الاضطرابات النفسية للمرأة: وهي اضطرابات تكون إما نفسية أو نفسية جسدية مرتبطة بالوضعية النفسية للمرأة جرّاء الأحداث الحياتية التي تعيشها كل امرأة وتكون إما مؤقتة أو مزمنة حسب الحالة وتتمثل في اضطراب القلق العام، اضطرابات النوم، اضطراب العادات الغذائية، تقلبات في المزاج، بالإضافة إلى استخدام الآليات الدفاعية اللاشعورية المعبرة عن عدم التكيف النفسي للمرأة.

7. منهجية الدراسة: ولعل المنهج الذي يتناسب ودراستنا هو:

أ. المنهج الإثنوغرافي، الذي يعرّف على أنه "منهج لوصف الواقع، واستنتاج الدلائل والبراهين من المشاهدة الفعلية للظاهرة المدروسة، ويتطلب هذا المنهج من الباحث معايشة فعلية للميدان أو الحقل موضوع الدراسة، وفيه يكون الباحث الإثنوغرافي من النوع المشاهد المشارك، ما يجعل البحث الإثنوغرافي واقعا بين حدود البحث الكيفي السوسيولوجي والسيكولوجي لمجرد الفهم، والبحث الإجرائي الذي يستهدف الفهم والمشاركة والتغيير نحو الأفضل"،

(السلطان،ب.ت،11،بتصرف)، فهو"وصف لثقافات وحياة الشعوب" على اعتبار أن مفهوم *Ethnographie* بالفرنسية أو*Ethnography* بالإنجليزية، مشكّل من مقطعين: *Ethno* وتعني جنس أو شعب و*graphie* وتعني وصف (Le Robert ;2016). فهي دراسة كيفية في عالم طقسي، دفعنا التوغل فيه من أجل جمع معطيات البحث، ويكون بحثنا عمليا وصفيا من أجل حصر السلوكات الفعلية لممارسة طقس الكسّابة من قبل مبحوثاتنا.

ب- المنهج الوصفي: الذي يتناسب وطبيعة دراستنا، حيث يستطيع "الإثنوغرافي من خلال الدراسة الوصفية أن يعطي وصفا مفصلا للظاهرة الاجتماعية، وأن يحلل علاقتها بالأخلاق والمعتقدات والنظام الاجتماعي للشعب المدروس" (جعفر، 1989، 34) و" لأنه يعتمد على وصف الظواهر وصفا دقيقا من كل الزوايا ويسعى لجمع بيانات من أفراد المجتمع لمحاولة تحديد الحالة الراهنة للمجتمع في متغير واحد أو متغيرات وهو يقوم على حقائق مرتبطة".(اللحلح، أبو بكر،2002، 54)

8. أدوات الدراسة: يعتمد كل باحث على جملة من الأدوات التي تتلاءم ومنهج بحثه، وقد وجدنا أنفسنا نستخدم أكثر من أداة فرضها علينا منهج الدراسة الإثنوغرافية من جهة وطبيعة الموضوع من جهة أخرى نذكر أهمها:

أ- الملاحظة بالمشاركة: وهي من أهم أدوات المنهج الوصفي والذي تعتمدها أيضا الدراسات الإثنوغرافية والأنثروبولوجية والاجتماعية، إذ يعتمد هذا النوع من الملاحظة على اشتراك الباحث في حياة الأفراد المعنيين بالدراسة، فيقوم بملاحظتهم في وقت يكونون منشغلين بنشاطاتهم، فهي محدودة، إذ ترتبط بزمان ومكان النشاط، وتعرف بأنها:" تلك الملاحظة التي يقوم بها الباحث بمشاركة واعية منظمة، حسبما تسمح به الظروف في نشاطات الحياة الاجتماعية وفي اهتمامات الجماعات بهدف الحصول على بيانات تتعلق بالسلوك الاجتماعي وذلك عن طريق اتصال مباشر يجريه الباحث من خلال مواقف اجتماعية محددة ". (عباد،2006، 128، بتصرف) والهدف منها هو التقرب والاحتكاك قدر ما يمكن من واقع الحدث، من خلال إثارة الاتصال العفوي والشخصي والتفاعل مع جموع الحاضرات من الفتيات والنساء اللائي جئن خصيصا لممارسة طقس الكسّابة.

ب- المقابلة: وهي أداة لا تقل أهمية عن الأولى حيث اخترنا المقابلة غير الموجهة التي اعتمدها "كارل روجرس" 1942، "لأنها تشجع المبحوث على الإجابة الحرة والتلقائية والعفوية وتظهر فيها الاستجابة طبيعية وحرة، لكونها تهدف إلى معرفة الشكل بطريقة موضوعية" Blanchet ;et (09; 1985; Autres) والهدف منها هو الدخول في حوارات تلقائية وعفوية بعيدة كل البعد عما يظهرها أنها موجهة أو تدخلا في حياة المبحوثة، حيث حاولنا أن تتصف مقابلاتنا بالبساطة والعفوية قدر الممكن .

ج- التصوير الفوتوغرافي وبالفيديو: استعنا بالكاميرا التصويرية لالتقاط بعض الصور عن المكان وعن عملية قطف زهرة الكسّابة، وكذا عن الشاطئ وتوغل النساء به حتى وصولهن إلى "الفلتة"، كما قمنا بتصوير حيّ لكل ما يتعلق بالطقس منذ قدوم الفتيات والنساء إلى محيط ضريح سيدي

المجدوب حتى انتهائهن من الطقس. وقد تمت الاستعانة بطالبات للقيام بذلك حتى لا ينكشف أمرنا ونحن نقوم بالبحث.

د- التسجيل الصوتي: وتم باستخدام مسجل صوتي غير مرئي، والهدف منه التقاط الحوارات التي دارت بيننا وبين مريدات طقس الكسّابة.

9. عينة الدراسة ومواصفاتها: وفقا لمتطلبات الدراسة ومتغيراتها وتماشيا مع أهدافها التي نسعى إلى تحقيقها، اعتمدنا في اختيارنا على **العينة المكانية** من مريدات طقس الكسّابة يوم 21 مارس، من اللاتي هن في سن الزواج أو ممن تأخر زواجهن، حيث تم جمع حوارات (20) عشرين امرأة وفتاة تراوحت أعمارهن بين 21 و47 سنة مختلف المستويات العلمية.

10. مواصفات العينة: هي حالات تعاني صاحباتها من مشاكل شخصية أو علائقية أساسها تأخرهن عن الزواج (التثقاف أو التعطيل) ولم يجدن جوابا لتلك المعاناة إلا بممارسة هذا الطقس الذي سمح لهن من إعطاء معنى لمعاناتهن وطلب العلاج الأنسب، وتتحدد مواصفاتها كما يلي:

أ- أن يكن ممن هن في سن الزواج أو ممن تأخر زواجهن،

ب- أن لا يوجد لديهن عيب صحي ظاهر أو خفي (الصحة والجمال) أو مادي، فمنهن من تعمل ومنهن من توفر لهن العائلة كل الماديات.

ج- أن يكُنّ ممن لديهن إقرار بوجود "شيء غير طبيعي" بخصوص عدم زواجهن

د- أن يكن ممن طلبن المساعدة من الراقي أو غيره.

هـ- أن يكنّ ممن لمسن نتائج إيجابية من هذا الطقس على ممارسات سابقات من الصديقات والأقارب.

و- أن يكنّ ممن تدخل شخص ما لتوجيه طلب العلاج (صديقات أو جارة..)

ز- أن يكون لديهن طابعا اضطهاديا لمعاناتهن، يرجعنه إلى قوى خارقة أو فوق طبيعية مما يفسر لجوءهن إلى هذا الطقس.

11. حدود الدراسة: منها:

أ- الحدود المكانية: محيط ضريح الولي سيدي المجدوب وشاطئ "القلتة ".

ب- الحدود الزمانية: 21 مارس 2015 من حوالي11.00 صباحا وحتى 16.00 عصرا.

ج-الحدود البشرية: وتتمثل في مريدات طقس الكسّابة من الفتيات اللائي لم تتزوج بعد أو تأخر زواجهن.

12. الإجابة على التساؤلات:

1. أية علاقة تربط الكسّابة كطقس اجتماعي وزواج الفتاة في مستغانم؟

لا يمكننا التطرق إلى الإجابة عن هذا السؤال دون المرور على معنى هذا الطقس وأهدافه، ثم بالاعتماد على المقابلات مع مريدات الطقس وتحليل رموز الطقس تكون نتائجنا كما يلي:

أ. التعريف بطقس الكسّابة: كلمة "الكسّابة" من الناحية اللغوية مشتقة من الفعل كسب، وجاءت في بحثنا بصيغة المبالغة أي الكسب غير المحدود. ويعرفه (لسان العرب) "لابن منظور" كما يلي:

الكَسْبُ طَلَبُ الرِّزْقِ، والكَسْبُ الطَّلَبُ والسَّعْيُ في طَلَبِ الرزق والمَعيشةِ. إذن فالكسب مرتبط بالسعي للحصول على رغبة ما تكون إما رزقا أو ولدا أو علما..إلخ. (ابن منظور،(ج1)، 716-717) وفي "قاموس Larousse" باللغة الفرنسية فإن فعل كسب يقابله إما *acquérir* والتي تعني الحصول على شيء، وإما *Devenir possesseur* وتعني أن يصبح الشخص كاسبا لشيء ما، أو*obtenirGagner* , والذي يعني الحصول على شيء مرغوب فيه. أما في قاموس المعاني عربي انجليزي فقد جاء الفعل *To acquire* بمعنى أَجْلَبَ – كَسَبَ أو أَوْجَدَهُ مَطْلُوبَهُ، كما نستنتج من الناحية اللغوية والدلالية أن الكلمة جاءت بالإجماع وفي اللغات الثلاث، بمعنى الكسب وإيجاد المطلوب، لمبتغى يبقى كامنا لدى الطالب، حيث يكون إما مالا أو ولدا أو رزقا.(علاق ومناد، 2014، بتصرف)

ب. المفهوم التاريخي لكلمة الكسّابة: يعود أصل "الكسّابة" كما في معظم الطقوس إلى عقود طويلة، لم نتمكن من تحديد تاريخه بالضبط، غير أن جميع من تم سؤالهن من النساء المستغانميات، أجمعن أنها عادة قديمة،"الكسّابة معروفة من عند الجدود" تقول إحدى المبحوثات، وارتبطت بالزواج، واقترنت بأول يوم من أيام الربيع أي في الـ21 مارس من كل سنة. (علاق ومناد، 2014، بتصرف)

وتنسب "الكسّابة" في الأصل إلى ثلاث روايات غير موحدة، فهناك روايات تقول إن "القَلْتة"[1] وهي المكان الذي يمارس فيه الطقس،هي من تعنيها تسمية "الكسّابة"، وهناك من تقول إن "الكسّابة " تعني زهرة صفراء يدور حولها الطقس، وهناك من يقول بأن العادة كلها أي منذ قطف الزهرة حتى العودة بها إلى البيت هي من تعني "الكسّابة". (علاق ومناد، 2014، بتصرف)

ويرجع طقس "الكسّابة" حسب الرواية الشائعة إلى زهرة صفراء اللون تنبت في محيط ضريح سيدي المجدوب، تقوم النساء الكبيرات في السن من الجدات أو الأمهات بقطفها بواسطة خاتم من ذهب يكون ملكا للفتاة التي يُرغب في تزويجها، بعد أن ينزلن قبيل طلوع شمس يوم 21 من مارس في سُكون وتستّر رغبة في قضاء الحاجة، وبعيدا عن الإشاعة، فاستحضار النية واجب عند قطفها بالرغبة في أن تتزوج صاحبة الخاتم، ثم تنزل النسوة بعد قطفها إلى شاطئ سيدي المجدوب حيث بداية الشاطئ المحيطة بالصخور في شكل شبه دائري يطلق عليه أصحاب المكان "بالقلتة"، وتدخل النسوة البحر بثيابهن محاولة التوغل فيه مشيا تارة ومتسلقة الصخور تارة أخرى حتى تصلن إلى المكان المحيط بالصخور الذي يشبه شكله مغارة مفتوحة، ولا يهم إن كان البحر هائجا أم هادئا، فالمهم هو الوصول إلى الهدف، وهناك تقمن بإشعال الشموع وإطلاق الزغاريد ورمي الحناء والسكر في المكان المخصص تبركا وتكملة للطقس حتى يتم القبول، ويزيد تلاطم الأمواج لهؤلاء النسوة وهن يتممن خطوات الطقس حماسة بأن "أسياد المكان" ويقصد بهم "الجن" أو "الجنون" بالعامية قد قبلوا النذور، ثم ترجع النسوة إلى الشاطئ مبللة الثياب، لكن لا

[1] - وهي كلمة عامية تقابلها في اللغة كلمة "المستنقع "وتعرف في مناطق الوسط والشرق الجزائري "بالمرجة"

يمكنها مغادرة المكان دون أن تمر بضريح الولي سيدي المجدوب بعد أن تلف النبتة في القطن مع قطعة سكر وحبة تمر وقليل من الحناء لتحفظها في صندوق الحلي، أو في جهاز الفتاة للبركة إلى العام المقبل، حيث تعود النسوة في نفس اليوم أي 21مارس، لتحمل كل واحدة معها الزهرة القديمة بعد أن تستخرجها من الصندوق لتعيدها إلى المكان الذي تم قطفها منه في السنة الماضية، لتعاود قطف واحدة أخرى بنفس الطقوس، ولكن بنية تزويج فتاة أخرى هذه المرّة، وهكذا تتكرر العملية كل سنة، وتعاد نفس مراسيم الطقس.... (علاق ومناد، 2014، بتصرف)

ومع مرور السنين، انحرفت ممارسة هذا الطقس عن هدفها الأول وهو إزاحة التعطيل عن الزواج، ليصبح الطقس مقصدا لكل من تعطلت أموره أو استعصت مشاكله ليجد في المخزون التراثي للمجتمع ملاذه وأمله الأخير، ولم تعد هذه الظاهرة تمارس في الخفاء بعيدا عن الأنظار ومن قبل كبيرات السن أو الجدات تحديدا كما جرت عليه العادة قديما،بل أصبحت الفتيات ممن هي في سن الزواج أو من اللاتي تأخر زواجهن من مختلف الأعمار هن من يقمن بممارسة الطقس بدلا عنهن، كما لم تعد تستقطب فئة الأميين وضعيفي الدخل من الفتيات فقط، بل تعدت إلى النخبة المتعلمة وحتى إلى الفئة الميسورة، حيث تواجدت كل المستويات العلمية والاجتماعية والاقتصادية مجتمعة دون تمييز، (علاق ومناد، 2014، بتصرف) لكننا ركزنا في دراستنا هذه فقط على فئة محددة من الفتيات اللائي هن في سن الزواج أو ممن تأخر زواجهن. وقد تم بناء معنى هذا الطقس على أسطورة تدور حولها حكاية خرافية ذكرها المسرحي "ولد عبد الرحمن كاكي" في مسرحيته "كل واحد وحكْمُو" التي كتبها سنة 1967،حيث تسرد أحداثها حكاية شعبية قديمة متداولة في منطقة مستغانم ويقال عنها إنها واقعية، وهي حكاية " الجوهر"[1] ذات الأربع عشرة (14) ربيعا، التي تحب جارها الشاب الفقير والعاطل عن العمل، والتي تقدم لخطبتها عجوز هرم متزوج بثلاث نسوة وله اثنا عشرة ولدا، عجوز غني ذا صيت وجبروت ومال يدعى الشيخ " جبّور"[2] مستغلا ديون والدها المتراكمة لديه وضعف أهلها أمامه والذين لم يجدوا بدّا سوى الرضوخ لمطلبه وتزويجها غصبا، في حين رفضت هي الاقتران به، وجاء اليوم الموعود، وزفت "الجوهر" عروسا إلى بيت زوجها العجوز.. وكما جرت العادة عند أهالي مستغانم فلا بد من زيارة ضريح الولي الصالح سيدي المجدوب الذي يتخذ مكانا مهما فوق تلّة مطلة على البحر، للتبرك به والحصول على" التسريح"، وهي الفرصة التي استغلتها "الجوهر" لتفر من مرافقاتها وترمي بنفسها في البحر، وتفضّل الانتحار حفاظا على حبها لمن تهواه ورفضا لزواجها بمن لا تحبه، ولا تنتهي الحكاية هنا.. بل تنتقل الأحداث إلى عالم الجن والأرواح الخفية من جنس العفاريت التي قامت بإنقاذ الفتاة والاعتناء بها بعيدا عن أهلها الذين فعلوا المستحيل للعثور عليها، ويعلم الشيخ "جبّور" بأنها في عالم الجن، ويحاول التقرب منهم ليستعيد عروسه، لكن محاولاته كلها

[1]- اختار عبد الرحمن كاكي تسمية بطلة الأسطورة ب" الجوهر" أي اللؤلؤ، نسبة إلى نقاءها وغلائها الرمزي

[2] - ويرمز اسم جبّور إلى الجبروت والطغيان

باءت بالفشل خصوصا بعد إصرار الفتاة على الرفض وفضلت أن تموت انتصارا لحبها، وبرفضها العودة إلى عالم الأحياء اختارت "الجوهر" الموت من أن تتزوجه.. وفي النهاية يموت الرجل العجوز وبعد وفاته بأيام وُجد جسد الفتاة مرميا على شاطئ البحر...(كاكي،1967) .

انطلاقا من هنا تتضح مقاربة البحث عن الزواج وطقس الكسّابة، فالحفاظ على الحب وتولي العفاريت زمام الأمور، هو من حرك ترقية هذه الحكاية إلى طقس يمارس كل سنة ويتم إحياءه عند قدوم كل ربيع، بل واستحدثت الزائرات في تقديسهن لهذا المكان في السنوات الأخيرة عادات لم تكن تتداول من قبل من قبل النساء، حيث راحت بعضهن ترمى في "القلتة" اللحم النيئ وأشياء أخرى إلى جانب الحناء والسكر بعد إيقاد الشموع، والسبب في ذلك يعود حسب مبحوثاتنا إلى هدايا الطالبات، فالمكان حسبهن مسكون "بجنية البحر"، ويقصدن بذلك روح "الجوهر" التي رمت بنفسها في ذلك المكان، وأن الجن يحب أكل اللحم النيئ، وأجابت الممارسات لهذا الطقس عن سؤالنا لماذا يرمى اللحم ولمن؟ "أنه عندما تتحقق الأمنيات تنفذ النذور وأن أسياد البحر هم من يستهلكون هذه النذور" ويقصد بأسياد البحر في هذا السياق هم الجن. (علاق ومناد، 2014،بتصرف)

ج. الهدف من هذا الطقس: ارتبطت ممارسة طقس "الكسّابة" بالخرافة التي حكيت عن "الجوهر" البطلة العاشقة والمحافظة لحبها والتي رفضت تلطيخه بزواجها من شخص آخر لا تحبه، ثم بشاطئ سيدي المجدوب الذي يعتبر المكان المقدس الذي جرت أحداث القصة الخرافية فيه ثم حوله، والذي يقع شرق مدينة مستغانم، فللمكان تقديس خاص في المجتمع المستغانمي، فهو من جهة مكان ضريح الولي الصالح سيدي المجدوب1، وهو المكان الذي تسكنه روح بطلة الأسطورة التي لها علاقة وطيدة بسكان الشاطئ الذين يعرفون ب"الأسياد " أو "الجنون" الذين أنقذوا الفتاة وحافظوا عليها ونفذوا رغبتها، ولهذا ربطت الممارسات لهذا الطقس علاقة القوة الخارقة لأسياد المكان وتحقيق الأمنيات، وأصبح الطقس مطلبا مهما عند المرأة المستغانمية وهو التمني من أسياد البحر تحقيق أمنية الحصول على زوج المستقبل تماما كما حققوا أمنية "الجوهر" بالحفاظ عليها وحمايتها إلى غاية وفاتها،وهي الأمنية التي بقيت تحافظ عليها كمطلب أساس،وبهذا تحولت هذه البطلة إلى "والية" تقدسها النساء وتحولت قصتها إلى حب أزلي وربطت في زيارة مكان وفاتها ارتباطا عاطفيا قبل أن يتحول إلى ملاذ الباحثات عن عرسان طال انتظارهم.

ونجد أن الرابط في طقس الكسّابة الذي تعقد عليه النيّة هو "الأمل". والأمل في اللغة العربية كما ذكر في معاجم اللغة هو الرجـاء. وكثر استعماله في حصولهِ، وجمع أمل هو" آمال". فالأمل هو عكس اليأس (معجم المعاني) و"هو ذلك الشعور أو العاطفة التي يشعر معها الإنسان بالتفاؤل

[1] - سيدي عبد الرحمن بن عياد المعروف بالمجذوب، صاحب الأحوال العجيبة، والكرامات الغريبة وصاحب الرباعيات التي عرف بها والمسماة رباعيات المجدوب (التليدي،2003، 167)

والإيجابية تجاه ذاته وتجاه الآخرين، وهو الشعور الذي يجعله قادراً على التفاعل والتكيف مع المحيطين به ويدفعه بمنأى عن العزلة، وهو أيضاً الشعور الذي يرجو معه الإنسان نتائج إيجابية مهما كانت الحوادث السلبية التي يمر بها حتى لو كانت هذه النتائج الإيجابية صعبة أو مستحيلة الحدوث.(أبو حامد،2015)

ويرتكز الأمل في هذه الحالة على التركيز بالتفكير على الأشياء التي تجعل المرأة تشعر بالامتنان لأنها تتوافر لديها معلومات عن صحة وصدق الكسّابة في تحقيق الأماني،ثم الاتصال بالنساء الأخريات والتفاعل معهن لمحاربة حياة الخوف والعزلة، ليصبح الطقس بممارساته طقس مشاركة الجميع أحلامهن التي تغذي آمالهن. والأهم في ذلك، هو الاحتفاظ بالرسالة التالية دوماً في قلب وعقل كل مريدة للطقس وعدم نسيانها على الإطلاق، والمتعلقة بالسعي وراء تحقيق المطالب والرغبات مستعينات بالمقولة التالية: "أَسْعَى يَا عَبْدي وأنا نَسْعَى مْعَاكْ" وهو ما يعني أن البحث عن الأسباب أمر واجب، وأنه سيلاقي معونة الخالق عز وجل. ويأتي هذا بعد أن يحدد المقصود، لتنتقل المرأة من مرحلة التعرف والترقب إلى مرحلة العمل الفعلي وتحقيق الأهداف، ولعل ممارسة الطقس تعد مسعى عمليا لتحقيق الأمنيات.

ثم تأتي النيّة بتبييت القصد والعزم على تطبيق الطقس تحقيقا للأمنية التي تُسرّ بها كل مريدة للطقس، وتكتمها في قلبها طلبا لتحقيقها،وهي التي تحدد هدف العمل الذي ستقوم به الفتاة، فتنوي كل واحدة في قلبها تطبيقا للمقولة الشعبية "النِّيَّة حْبِيبَةْ الله" كما تقول إحدى المبحوثات وهي منتقاة من قول الرسول صلى الله عليه وسلم "إنَّما الأعمال بالنيَّات، وإنَّما لكُلِّ اِمرئٍ ما نوىٰ"

والنية كما يعرّفها كمال غزال هي" عملية عقلية واعية في الأساس وتتركز على محور أو فكرة معينة تعبر عن رغبة لدى صاحبها وقد تحمل في بعض الأحيان عواطف أو شحنات شعورية سواء أكانت سلبية أم إيجابية" (موقع ويكيبيديا). فكثير من الفتيات اللائي تحدثنا معهن، كن ممن لا يثقن في أنفسهن من جهة وهن بعيدات كل البعد عن تحصين أنفسهن بالعلم والقيم الإسلامية السمحة لكونهن مهتمات كل الاهتمام بما يُرى فقط، أي ظاهر الأشياء وأهمها أن تكون لهن مكانة في المجتمع، ولا يتأتى لهن تحقيق هذه الأخيرة سوى بالزواج، "كُلْ شِي غْلَى النِّيَّة" تقول إحدى مبحوثاتنا، وتضيف "إلى مَا عَنْدَكْشْ النيّة، حَاجَة مَاتَصْدَقْ لَكْ" أي إذا لم تكن لديك النية في الطقس فسوف لن يتحقق لك أي شيء. وقد اتفقت جميع مبحوثاتنا أن كل شيء متعلق بالنية في الحالة التي تريد المريدة أن تحقق أمنيتها.

ويأتي الاستعداد لتطبيق الطقس بأيام قبل موعد 21 من مارس،إن لم نقل بشهور، فهناك من تحضر للطقس وتسجل التاريخ في أجندتها وتنتظر بفارغ الصبر اليوم الموعود، تقول إحدى المبحوثات" أنَا مَارْكِيتْ *la date* نْتَاعْ اليُومْ في *portable* بَاشْ مَا نْسَاشْ وزدْتْ خَبّرْتْ صَاحَبْتِي بَاشْ هِيَّ تَانِي تْجِي مْعَايَا"، وأخرى تقول "أنا كْتَبْتَهَا وْحَطِّيتْهَا عْلَى *frigo* بَاهْ مَا نَنْسَاشْ" والملاحظ أن الاستعداد يصاحب النية في تطبيق الطقس. وتقول أخرى "أنا رُحْتْ شْرِيتْ الحَنَّة

والشَّمَعْ وْدَرْتْ مْعَاهُمْ السُّكَّرْ وْبَيَّتْهُمْ تحْتْ رَاسِي بَاشْ نْزَيَّنْ البَيّتة" أي أنها قامت بشراء الحنة والشمع ووضعت معهم السكر ووضعتهم تحت وسادتها ليلا لتبيّت النية.

والملاحظ أيضا أن هذه النية وهذا الاستعداد لا يأتيان من عدم، فقد وجدنا عند مبحوثاتنا الكثير من التأثيرات النفسية المصاحبة لممارسة الطقس، وهي تأثيرات آتية بإيحاء من القريبات من الفتاة غير المتزوجة أو التي لديها حاجة أخرى تريد تحقيقها واللائي ربطن المسألة بطقس الكسّابة، وهو في جوهره يشير إلى لون من ألوان التأثير الانفعالي، ويعمل عمل الحث الإيجابي أو ما يسمى بـ"تركيز التنبيه" والذي يعمل على استدعاء حالة الانبعاث النفسي والإحساس بالفرح.

كما أن أن الرغبة في الزواج أمر ملح عند مبحوثاتنا، فهن ينتظرن اليوم المخصص لهذا الطقس حتى تستطعن الحضور والمشاركة، فالتحضير النفسي لممارسة الطقس يلعب دورا فعالا في جعل الفتاة تحضر نفسها بشكل إيجابي بحيث تركز فقط على الدعم النفسي الذي يمكن أن تستفيد به من هذه العادة وتجعلها بواسطة آلية التنفيس أقل قلقا لأنها ستجعل كل الضغوط وما يحيط بها من قلق وما ينجر عنه من اضطرابات نفسية أو جسدية تصرف بشكل جماعي، فالمبحوثات أتين إما زرافات أو زوجين، وكأنه عملية لدعم الخوف وتعزيز للقلق الداخلي بعد أن ترى كل واحدة أنها ليست وحدها من بقيت عانسا، وأن ما تفعله لا يخرج عن العادة ما دام الكل حاضرا من أجل نفس الهدف ولو أن الأمنيات قد تختلف عند البعض، تقول إحدى المبحوثات "أنَا رَانِي مَخْلُوعَة في *le nombre* نُتَاعْ النَّسَا اللّي جَاوْ الْيُومْ، حَسِّيتْ بللّي قاعْ *mosta* هوْدَتْ هْنَا" أي أنها تفاجأت بعدد النساء اللائي أتين إلى الضريح. وتضيف صديقتها " أنَا جَبْتْ صَحّبْتِي مْعَايَا بَاشْ تَعْطِينِي *courage*، هِيَّ دَارَتهْا الْعَامْ اللّي فَاتْ وْرَاهِي مَخْطُوبَة، وْهِيَّ اللّي كُورْجَتْنِي بَاشْ نْجِي وَنْدِيرْهَا". وحين علمنا أن مبحوثتنا لها من العمر 26 سنة، قلنا لها أنها مازالت لم تصل مرحلة الخطر مادام هناك من هن أكبر منها ولم يتزوجن، فردت وهي تضحك " لاَ مَاتْقُولِيشْ هَكَّا، أنَا خَصْنِي نْدِيرْ دَارْ وَوْلِيدَاتْ،وْرَانِي في *la limite* هَكْذَا نَتْهَنّى وْمَا نَبْقَاشْ جَرْسُونَة عَنْدْ نْسَا لَخُّوتْ" ويمكننا أن نلمس هنا أن أسطورة الكسّابة "لم تنشأ عن رغبة مجردة ولدت من فراغ، وإنما كانت استجابة لحالة موضوعية تضافرت في إيجادها عوامل متنوعة ومتفاعلة على نحو جدلي، فكل عامل يؤثر ويتأثر نتيجة التفاعل بين طبيعة الإنسان وطبيعة الحياة، ولزاما علينا ألا ننسى المجتمع الذي نشأت فيه هذه الفتاة وسلوكها، فالاستعداد النفسي أو تنظيم الطاقة النفسية أهمية قصوى في حياة الفتاة كونها لا تخلو بالدرجة الأولى من القلق والتوتر وفقدان الثقة بالنفس والانفعال وغيرها من المؤثرات السلبية المعيقة، طالما تواجهها بعض المشكلات التي يصعب عليها حلها أثناء محاولاتها تحقيق أهدافها، وبالتالي التأثير على سلوكها، خاصة عند اللائي لا يملكن القدرة على التحكم والسيطرة على درجة الإنفعال. (راتب،1997،بتصرف)

ويذكر جمال عباس (2008) أن هناك نوعان من الدافعية، دافعية داخلية *intrinsèque*ودافعية خارجية*extrinsèque* ،(عباس، 2008، 41-42، بتصرف). وتدخل الدافعية هذه بنوعيها في تطبيق طقس الكسّابة، فالدافعية الداخلية وتضم المتعة والفرح بعد القيام بمهمة الطقس عن آخره،

كما أن المشاركة الجماعية تقوي من الدافعية وتنمي الجدارة، وتدخل الدافعية الخارجية حين تنتظر الفتاة المكافأة الخارجية بعد إنجازها لطقس الكسّابة والمتمثلة في الوصول إلى تحقيق الرغبة في الزواج، والتعلق بالأمل حتى تحقيقه، وهي دافعية تؤدي إلى التنشيط والفاعلية والشعور الدائم بالإحساسات والانفعالات الإيجابية.

ونستنتج أن مبحوثاتنا من الفتيات ممن هن في سن الزواج أو اللائي تأخر زواجهن، ربطن طقس الكسّابة بتنحية التعطيل أو العاكس عنهن رغبة في الوصول إلى تحقيق الزواج، وقد تدعمن بالنية وصدقها والاستعداد النفسي لممارستها، كما أن الدعم النفسي الذي لقينه من قبل القريبات والصديقات اللائي نجحن في تحقيق أحلامهن بواسطتها زادهن إرادة وإصرارا على تطبيقها هن أيضا.

ومهما اختلفت الأسباب عند مبحوثاتنا ممن لم تتزوج بعد أو ممن تأخر زواجها واللائي قمن بتطبيق الطقس كما هو متعارف عليه أو ممن قامت بإضافة أشياء أخرى إليه كرمي اللحم النيئ مثلا، فإن كل ذلك جاء أولا لاحتوائها طقس الكسّابة كطقس نسوي أو نسائي[1] من جهة والذي تحاول من خلاله توصيل خطاب خاص يؤكد حضورها الذاتي ويميزه، ويعود هذا ربما لحاجاتهن أو عجزهن عن تحقيق حلمهن بالزواج، أو عن إيجاد من يوصل صوتهن أو يسمعهن، فالملاحظ أنها دوافع لا حصر لها جعلت الفتاة المستغانمية سواء تلك التي هي في سن الزواج أو ممن تأخر زواجها ترى في طقس الكسّابة وسيلة من الوسائل التي يمكن أن تساعدها على مواجهة مشاكل الحياة أو الحصول على بعض الأمل والاطمئنان، وهي التي لا تملك حلولا أخرى، وربما إيمانا منها بأنها وحدها تلك القوى الأخرى الخفية الخارقة تستطيع مواجهة نظرة المجتمع إليهن بعين النقص، واللائي ينظرن إلى أنفسهن أنهن ضحايا في هذا المجتمع الذي يعجزن عن تغييره، وانتزاع حقهن بالبحث أو طلب المعونة على الرضوخ إلى العنوسة وتقبل النقص، نساء من مختلف الأعمار ومختلف الأوساط، أميات ومتعلمات، فقيرات وغنيات،كلهن اندمجن في عالم يزج فيه المتخيل بالواقع وصولا إلى تطبيق طقس الكسّابة وتكملته في " الڤلتة" أي مكان تواجد روح بطلة الكسّابة وطلب المعونة من "الأسياد"، إذ يتشبع هذا الطقس بالعديد من الرّمزيات التي تحيط به من كل الجوانب والتي تدخل كلها في البحث عن تقريب فكرة التفريج بتطبيق الطقس عن طريق وسائل تدور كلها حول محور واحد وهو بلوغ الحصول على زوج المستقبل. وعليه فإن" الكسّابة" يعد طقسا من طقوس جلب السعد بامتياز للفتاة غير المتزوجة سواء تلك التي هي في سن الزواج أو ممن تأخر زواجها.

2. إلى أي حد يمكن "للكسّابة" كمعتقد شعبي وممارسة طقوسية أن تكون من استراتيجيات العلاج الجماعي لحل الأزمات النفسية وعلاج الاضطرابات النفسية عند الفتاة المستغانمية التي

---

[1]- أما لفظة نسائي ونسوي، فالنسوة والنساء جمع المرأة وكلا المفردتين صالحة لأداء المعنى المقصود، لكن المعجم يضيف إلى معنى لفظ النساء إضافة ترجع عليها مفردة " النسوة" ذلك أن النساء يكون جمعا للمرأة إذا كثرت النساء (عبد المطلب،2006، 10-11)

هي في سن الزواج أو المتأخر زواجها؟ للإجابة عن هذا السؤال اعتمدنا على تحليل الرموز المصاحبة لتطبيق الطقس ودلالاتها لدى الفتاة التي لم تتزوج بعد أو تأخر زواجها حيث استطاعت الفتاة عن طريق ممارسة طقس الكسّابة أن تبوح بما يختلج في نفسها من كوامن أفكارها ورغباتها المكبوتة حول قضية حساسة بشكل يبرز التمرد الجريء على سلطة المجتمع بأشكاله المتعددة، سواء أكانت داخلية أم خارجية، بآليات تعبير خاصة بها، لتعكس واقعها المأزوم اجتماعيا وإنسانيا، مستغلة اللغة الطقوسية لتتوارى خلفها وتحمل رموزها مهمة البوح والتعويض عما تريده، وتفرغ من خلالها ما توالى عليها من كبت واستدخال لترسبات يومية ولروتين سلبية المجتمع. فطقس الكسّابة ملئ بالرموز الظاهرة والباطنة، تحاول النسوة من خلاله توصيل صوتها بطريقة مباشرة وغير مباشرة، على شكل شفرات رمزية تدور كلها حول رغباتها.

فالرمزية من منظور التحليل النفسي بمعناها الواسع "هي أسلوب من التصوير غير المباشر والمجازى لفكرة أو صراع أو رغبة لا واعية، بهذا المعنى يمكننا عد كل تكوين بديل رمزي" (Americana 1966 ;161-162 Encyclopediaفي (حامد، 2011)، ووفقاً لهذا التعريف يجوز اعتبار أن المرأة الممارسة لطقس "الكسّابة" تعد في حد ذاتها إسقاطا لبعض التعابير الرمزية ولرغبات ترتبط بصور ذهنية عن ذكريات كامنة في لاوعيها، كما قد تكون نتاج حتمية ترابطية تجسّد حدثاً يرتبط بالرغبات الكامنة عندها. فالرمز هنا رغم تجليه عنصراً أبكماً لا واعياً لا يستطيع المرء صياغة تداعياته ويحيله إلى حقل المُرمّز "حقل الهوامات" بتعبير فرويد، والذي يرى في الرمز تمثيلاً لمواد مكبوتة لا شعورية في العادة، أو إلى "حقل النماذج الأثرية واللاوعي الجماعي" بتعبير يونغ الذي يعرف الرمز بوصفه "مصطلحاً أو اسماً أو صورةً يمكن أن تكون مألوفة في الحياة اليومية، وتتميز بمعنى ضمني إلى جانب معناها الواضح المباشر، وينطوي على أشياء مبهمة غير معروفة أو مخفية. (علاق ومناد، 2014،بتصرف)

وتذكر حامد أمال النور(2011) مقولة يونغ "لعل الممارسة الطقوسية تمثل من هذا المنطلق أموراً مكبوتة يتم التعبير عنها في التماهى والتسامي من خلال اللجوء إلى تطبيق كل الخطوات الخاصة بهذا الطقس عن طريق الحركات الوجدانية التي ربما تشير إلى حالات نفسية فاعلة". وما يؤكده "يونغ" أيضا أن هناك إدراكا واعياً ولا واعياً للواقع، فالتعامل مع ظاهرة حقيقية (أصوات، منظر..) يمكننا من ترجمة الظاهرة من عالم الواقع إلى عالم العقل، وتتحول في العقل إلى أحداث نفسية، طبيعتها النهائية غير معروفة طالما أن النفس لا تدرك مادتها النفسانية، بالتالي فإن كل تجربة تحتوى على عدد غير محدد من العوامل تصبح غير المعروفة (علاق ومناد، 2014،بتصرف)

ولعل الممارسة الجماعية الطقوسية "للكسّابة" تمثل شكلاً من أشكال إتاحة الفرصة لتفريغ تلك الميول بشكل جماعي، وهو ما اصطلح "يونغ" على تسميته "القنوات الانسيابية للطاقة *energy canalisation*". وفي هذا الصدد يرى "كالفن وآخرون" أن الرمز بالنسبة لـ "يونغ" هو أكثر من مجرد إخفاء أو خداع للرمز، فالرموز هي تحولات لدوافع بدائية، إنها قنوات انسيابية لتفريغ الغرائز الليبيدية بقيم روحية وثقافية.(علاق ومناد، 2014،بتصرف)

وتروي إحدى المبحوثات التي جاءت رفقة اثنين من صديقاتها، أن "مشاكلهن الأسرية لم تعد تحتمل، وأن أسبابا قاهرة هي التي دفعتهن لطرق هذا الباب بحثا عن مخرج، فهذه تقول إنها لم تعد تحتمل العيش كخادمة عند زوجات الأخوة "أنَا مَاطُلْقَتْشْ بَتْقَى بُونِيشَة عنْدْ نْسَا لخّوةْ، خُوتِي قَاعْ دْزَوْجُو وَبْقِيتْ عِي أنا"، وتقول رفيقتها : أنها تخطت الثلاثين، ولم تتزوج رغم كثرة خطابها، وقد تمت بالفعل خطبتها عدة مرات ولكن تفشل الخطوبة لأسباب غير معروفة في آخر لحظة؛ لهذا حضرت "للكسّابة" بحثا عن الحل أو السبب في هذا النحس." أما الثالثة فتقول "إنها أتت فقط لترافق صديقتيها وترى النتيجة".

من هنا نستنتج أن أسباب طلب الزواج تختلف من فتاة إلى أخرى وذلك باختلاف اعتقادات الفتاة وتكوينها وتنشئتها وغيرها من المحددات الأخرى، بحيث يرى «بومان» أن الناس يتزوجون لعديد من الأسباب مجتمعة أو لسبب واحد أو أكثر وتتمثل هذه الأسباب إما لبحث عن الحب أو الأمان الاقتصادي، أوالرغبة في حياة المنزل، أو الأمان العاطفي، أو تحقيق رغبة الوالدين، أو الهروب من الوحدة، أو الهروب من أوضاع غير مرغوب فيها في منزل الأسرة، أوتحقيق مركز اجتماعي معين، أو المغامرة والفضول لما في الزواج، أو إكمال نصف الدين (باشيخ، 2014، 129، بتصرف)

فما يميز الإنسان ويعطيه خصوصية وجودية حسب منصف المحواشي (2010)،هو القدرة التي يملكها على عقل الأشياء وإنشاء الرموز وشبكة المعاني، فالعيش بالرموز وتوظيفها فعالية إنسانية بكلّ امتياز، بها يعيش الإنسان ويؤثث وجوده ويبني عالمه المادي والمعنوي ويرسي نظام الأشياء والعلاقات بينه وبين الآخرين من الناس. ودلالة الأشياء والعلاقات لا تدرك إلاّ من خلال استعمالاتها وممّا تتضمّنه من معنى في حياتهم وممّا تتخذه من دلالة في متخيّلهم الجمعي. وكما قال "بيار أنصار" فإنّ المجتمعات سواء الحديثة منها أو التقليدية أو تلك المسمّاة بلا كتابة، تنتج دوما متخيلات "*des imaginaires*" لتعيش بها وتبني من خلالها رموزها وصورها عن نفسها وعن الأشياء والعالم، وبواسطتها تحدد أنظمة عيشها الجماعي ومعاييرها الخاصّة" (المحواشي، 2010)

ونتفق هنا مع ما طرحه المحواشي (2010) على لسان محمد صبور(1993) عن الأسئلة التي ترافق الفعل الطقسي حيث يرى أنه" من زاوية نظر جدلية ثمّة أسئلة أخرى وجيهة تطرح أيضا، أليست الفعل الطقسي لصيقا بكل الأفعال الاجتماعية وأنّ الاحتفالات الطقسية مناسبات للتعبئة وتجييش الوعي الجمعي بطاقات من المعنى في مجتمعات تتغيّر بسرعة وتعيش أزمة كينونة؟ أفلا تنهض الممارسات الطقوسية بوظائف اجتماعية حاسمة فتشبع حاجات كامنة في حياة الجماعات وتدخل في مبادلاتهم المادية والرمزية؟ ألا تُوظّف ممارسات الطقوس بوصفها وسائل رمزيّة لتأسيس السلطات والمراكز الاجتماعية (*les statuts sociaux*) وإضفاء الشرعية *(légitimer)* على السلطات وأشكال التمايز القائمة بين الأفراد والجماعات؟ ألا تندرج تلك الممارسات ضمن المساعي الفردية لتعزيز ملكية الثروات الرمزية في سوق الشرف والمحترمية (*respectabilité)* بحسب تعبير بيار بورديو ؟(المحواشي، 2010)

والملاحظ أن طقس الكسّابة كغيره من الطقوس متوقف على آلية التكرار في علاقتها بالزمن،" فأن نكرر ونعيد الأفعال الطقوسية (بحسب القواعد المتعارف عليها) يعني أن نحيي زمنا ماضيا ونقاوم تجدد زمن حاضر، أو على الأقل نكسر نزوعه إلى الحركية الرتيبة" (المحواشي، 2010) مما يعني التحكم في الزمن رمزيا، والتزوّد بالمعنى من خلال عمل السيكودراما العلاجي.

ويدخل طقس الكسّابة بما يعرف "بالموسم" والذي يعتبر فضاء طقوسيا مركبا من موضوع يشكل محور الاحتفال الطقوسي وإطارا اجتماعيا محددا، ثم زمكاني، وأخيرا أنشطة جماعية ذات طابع طقوسي (....) فزمن الموسم يحيل إلى زمن أصلي، قدسي، لذلك يتم داخل الموسم فعل التحيين، وهو ما يجعل الفضاء الطقوسي للموسم متمفصلا بشكل كبير عن البعد الميتي.(الزاهي، 2005،52) ومن رموزه ما يلي:

1. **الحكاية:** فالأصل أن الحكاية أنثى، تنتجها المرأة وتعيش فيها وبها، ولعل حكاية ألف ليلة وليلة أصدق الأدلة على أن الحكاية كائن أنثوي (الغدامي،1998، 24-25)،وحكاية الكسّابة حكاية أنثوية دون منازع، أنتجتها أنثى وهي " الجوهر" بطلة الحكاية، وتعيش بها وفيها المرأة من خلال ممارسة حيثيات طقوسها تقمصا بفصولها بدءا من قطف الزهرة حول محيط ضريح سيدي المجدوب ونزول البحر عبر الشاطئ ووصولا إلى "القلتة" ومخاطبة أرواح المكان وتقديم الهدايا ثم الخروج والعودة إلى الشاطئ.

2. الزمان: يرجع توقيت ممارسة طقس الكسّابة في الأصل إلى فجر وصباح أول يوم من أيام الربيع أي صباح كل 21 من مارس من كل سنة، وتقول الكبيرات في السن أن ممارستها تحبذ قبل طلوع الشمس، لكن أصبحت الزائرات حاليا يطبقنه طول اليوم أي في الصباح والمساء حتى العصر، والأهم في ذلك أنه مازال تقليدا سنويا يقام في نفس اليوم من كل سنة.(علاق ومناد، 2014، بتصرف)

3. المكان: شاطئ سيدي المجدوب، ويقع شرق مدينة مستغانم، وهو مرتبط بالولي الصالح سيدي المجدوب المطل على البحر، والذي يعتقد المستغانميون أنه حامي البحر والبر، حسب تعبير المبحوثات، وهو مكان مرتبط بطقس الزواج، من حيث تخصيصه من قبل العامة من الناس ليكون مزارا للعرسان قبل الدخول.(علاق ومناد، 2014، بتصرف) وهو المكان الذي تم فيه خرق التابو بعد أن حوّلته النسوة إلى مكان خاص يؤكد حضورهن الذاتي ويميّزنه بفعل تصعيد الرغبات وممارستها علنا أمام الملأ مكسّرة قوانين الممارسة التي كانت تطبق سرا وحوّلتها إلى ممارسة معلنة وفي وضح النهار.

4. المرأة: يقتصر تمثيل هذا الطقس في الأصل على المرأة الكبيرة في السن دون غيرها، وغالبا ما تكون الجدة، إذ ما هو متعارف عليه أن الصغيرات في السن لا يحق لهن الخروج رفقتهن، لتفوّض الجدة لتنفيذ الطقس مكان المعنية بالأمر عن طريق حمل خاتمها. ولكن تغيرت الأمور الآن وأصبحت الفتيات من مختلف الأعمار هن من تقمن بكل تفاصيله كتعبير عن محاولتهن فرض أنفسهن وأخذهن زمام الأمور دون تفويض، ومن ثم تحقيق ذواتهن دون مساعدة أحد.

5. الدعاء: لا يتم طقس الكسابة دون تبييت النية والدعاء، ويدور عادة حسب مبتغى كل زائرة، ويتنوع حسب العمر، تقول إحدى المبحوثات "نَطْلُبْ رِبِّي يَفْتَحْ عْلِيَّا الزْوَاجْ منْ اللّي رَانِي باغْيَاتَهْ"، وتقول أخرى "مَا رَانِي طَالْبَة وَالُو، نَطْلَبْ رَبِّي وَالْكَسَّابَة بَاشْ مَا نَبْقَاشْ هَاكَّا، مَا تَعَرْفِيشْ وَاشْ مَعْنَتْهَا قَاعْ خُوتَكْ يَتْزَوْجُو، وْنَانِي قَاعْ صْحَابَاتَكْ..تْحَسِّي بَللّي فِيكْ *la guigne* "وتقول رفيقتها"احْنَا مَتْوَالْفِينْ نْدِيرُوهَا وْتَصْدَقْلْنَا، أخْتِي دَارَتها وتْزَوْجَتْ لْعَامْ اللّي فَاتْ، وأنا جِيتْ نْدِيرْهَا هَذا الْعَامْ" . ومن الواضح أن طقس "الكسّابة" من الطقوس التي لا تشكل نماذج لما يعتقد الناس فحسب، بل هي من النماذج لتحصيل الإيمان أثناء تمثيله؛ إنها تولد قناعة تطابق المفاهيم الدينية للواقع، حيث تقوم الأنشطة الرمزية "بصهر العالم المعيش بالعالم المتخيل" (الشقيري، ب.ت، 5) وهو ما كرسته الممارسات لهذا الطقس عن طريق تقمص الأدوار بطريقة السيكودراما.

6. خاتم الذهب: وللخاتم قدسيته في هذا الطقس ولا يمكن أن ينجز دونه نظرا لارتباطه بالزواج، فهو رمز لارتباط رجل وامرأة برباط شراكة مدى الحياة، وهو المطلب الأساسي لمريدات الكسّابة، مما يعكس أهمية قطف الزهرة الصفراء بالخاتم. تقول إحدى المبحوثات "لاَزم تَقْلْعِيهَا بخَاتمْكْ تاَعْ الذْهَبْ ولاَّ مَا تَصْدَقْلَكْشْ" (أي يجب قطف الزهرة بخاتم من ذهب يكون ملكا للمرأة المعنية وإلا لن يتحقق المطلب) (علاق ومناد، 2014، بتصرف)

7. رمزية الماء: إن أغلب معاني الماء الرمزية حاضرة في طقس الكسّابة، كون الماء قوة تطهيرية، فرمزية الماء هي "الأوسع والأشد تعقيدًا"إذ ارتبط الماء في طقس الكسابة برمزية التطهير من الذنوب، وإعلان عن ولادة جديدة أحسن وأنبل من سابقتها. (علاق ومناد، 2014، بتصرف)، فحضور الصورة المائية التي تدور حولها أسطورة طقس الكسّابة تشكل مرآة تعكس الحالة النفسية للفتاة الممارسة لها، حيث تأثير الفضاء الاجتماعي على الفضاء الطبيعي. ويرتبط هذا الفضاء أي الماء المالح وبالأخص ماء البحر في المجتمع الجزائري بطقوس أخرى أهم، نراها تلتقي مع رموز هذا الطقس وهي الشفرة التي تحل عقدة الزواج أو "التّعكاس" عند من تأخر زواجها والمتمثلة في فك "المربوط" والذي يعرف عند العامة بـ" التثقاف أو التثقات"، وبالتالي إبطال السحر أو ما يسمى بـ "حل الرباط "، وتتم إما بشرب الماء من سبع موجات، أو عن طريق الغطس كلية في ماء البحر، حتى تتطهر الفتاة ويزول عنها ما تحمله من "تعطيل" أو سحر وهو الفعل الذي يرتبط أيضا بمصطلح "التطهير" الذي يستعمل في أغلب لغات العالم بلفظه اليوناني (كاتارسيس)1 والذي يترجم أحيانا إلى مفاهيم تحمل معنى التطهير والتنقية أو التنظيف، ولعل القيام بالدخول وسط الأمواج للوصول إلى "القلتة" والتي تعتبر من شروط إتمام "مراسيم الكسابة" على أتم وجه، لا نراه إلا تفسيرا لذلك، حتى تكون الحاجة "مقضية" كما تقول المبحوثات. (علاق ومناد، 2014، بتصرف).

[1] - والكلمة اليونانية *Katharsis* بالأساس من مفردات الطب وتعني التنقية والتطهير والتفريغ على المستوى الجسدي والعاطفي.

8.مكانة الجسد في طقس الكسابة: يظهر الجسد الطقوسي خلال الخطوات التي تنفذ الطقس، وهو الذي يقوم بفعل التماهي والمحاكاة، وهو جسد حاكي وسارد، وطريقة حكيه مبنية على المحاكاة، إنه يحكي عبر، وفي، ومن خلال المحاكاة عن المسافة بين لحظة الأصل القدسية ولحظة التحيين التي تعيشها الفتاة من خلاله، وبالتالي يصعب قراءته، لأنه ينقل الحكايات المقدسة من طبيعتها اللسانية إلى أصلها الجسدي ومتحولا معها إلى أدنى الدرجات السيميوطيقية (الزاهي، 2007، 52-53)

وهنا تتضح وظيفة الإشباع التي تحققها الممارسات الطقسية في حياة الجماعة المحلية، بحيث تستحيل احتفالاتها متنفّسا تعبّر من خلاله عن مكبوتاتها اللاشعورية، فهو طقس يكسر رتابة اليومي، ومن خلاله تتحرك الجماعة النسوية وتلتقي، أي يتم الإنتقال من الزمن اليومي إلى الزمن الجماعي الذي تتحدد فيه الروح، ويتوحدن جميعهن حول هدف واحد وحكاية واحدة ومتنفس واحد، يشتركن من خلاله في الزمان والمكان ويعالجن مشكلة واحدة جئن من أجلها بشكل جماعي" فالطقس ينتج حالات ذهنية جماعية تنتج عن حدث اجتماع الجماعة"(الكيلاني،1998، 128-129)

إن طقس الكسابة لا يعد ممارسة فوضوية بقدر ما يعد فعلا جماعيا، فلو قمنا بتحليله "على مستوى التحليل الوظيفي يمكن أن نتبيّن كيف تتخذ الأنشطة الطقوسية فعاليّة ونجاعة خاصّتين، وتملأ وظائف كامنة في حياة الجماعة المحلية، فتضمن لمُمارِساتِها نوعا من العلوّ والسموّ لا تستطيع رتابة الحياة اليومية في الحقيقة أن تمنحهم دوما إياه، كما تتيح لهن الدخول ولو مؤقّتا في حالات ذهنية سارّة(..)وندرك عندئذ دلالة إقبال الفئات الاجتماعية المختلفة وخصوصا تلك المهمومة بكينونتها ووجودها على حد تعبير "جون دوفينيو" فارتباط المرأة بهذا الطقس من الدلائل التي لا بد أن تحرك في المختص النفسي الشعور بحاجة هذه الأخيرة إلى المساعدة والوقوف إلى جانبها، خصوصا وأن العديد من الدراسات والأبحاث الإكلينيكية والملاحظات العلمية أثبتت خصوصية اضطرابات المرأة، وأنه " نظرا لأن لها فيسيولوجية خاصة ونفسية خاصة تتميز بها، فقد تقع فريسة للعديد من الإضطرابات النفسية، بل وبصورة واضحة وجلية، وتكون النتيجة لصالحها (غانم،13) ويترتب على هذا الإختلاف بينها وبين الرجل وجود بناء نفسي للمرأة يختلف عن ذلك البناء النفسي للرجل (غانم،21).

والملاحظ أن هناك تفاعلات تخلق أثناء الطقس تدخل ضمن ديناميكية الجماعة وتتمثل في:

أ. جو الجماعة: ويتضمن توحيد الفئة المستهدفة من الطقس وهي كل متأخرة عن الزواج، ثم الحالة المزاجية للجماعة أو الشعور الذي يتخلل الجماعة، فالجماعات النسوية التي تحضر الطقس نجدها تتعاون فيما بينها في إعطاء النصيحة والمعونة، ويشتركن في النزول إلى "الثلتة" حتى وإن كنّ لا يعرفن بعضهن،فما يجمعهن هو الهدف الموحد الذي أتين من أجله، ثم إتمام خطوات الطقس.

ب. المشاركة: وهي تفاعل الفتيات عقليا وانفعاليا في موقف الجماعة، بشكل يجعلهن يتشجعن على المساهمة في تحقيق سيرورة الطقس.

ج. وحدة الهدف: وهو الشعور الموحد بإتمام مراسيم سيرورة الطقس، وأن ما جمعهن في هذا اليوم بالذات قاسم مشترك بينهن، ظاهره طقس الكسّابة وباطنه هم تحقيق الرغبة بالزواج.

د. حجم الجماعة: ولحجم الجماعة دخل في إتمام مراسيم الطقس على أكمل وجه، حيث يلعب صغرها عملا إيجابيا سواء من الناحية النفسية أو الاجتماعية على الفتاة، كما يصبح لكبرها تأثير سلبي سواء على خصوصيته كطقس نسوي من جهة وعلى الفتيات اللائي جئن لتنفيذ الممارسة، حيث أن تجمهر الناس من كل الأعمار وحضور الجنس الآخر من الذكور بعد الظهر كان له تأثير سلبي جدا على الفتيات لما لاقينه من استهزاء وتجريح وإفساد لتنفيذ الطقس.

إن التأخر عن الزواج قد يشعر الفتيات بالفشل والشعور بالاضطهاد وضعف العلاقات الاجتماعية وفقدان الصلات العاطفية والشعور بقلق المستقبل (الهويش،92،2015) ومن **الاضطرابات النفسية** التي وجدناها تشترك فيها الفتيات الممارسات للطقس نجد أن **القلق** كان في مقدمة الترتيب، فهو يعد الملمح الأساسي في حياة الأنثى، لكنه قلق عرضي مرتبط بالحالة النفسية للفتاة، تقول إحدى المبحوثات "أنا جِيتْ الْيُومْ مَاشِي بَاشْ نْطْلَبْ الْكَسّابَة، جِيتْ بَاشْ نْزُورْ عْلَى خَاطَرْ دَرْتْ الْكَسّابَة هَذُو ثَلْثْ سْنِينْ، عْلَى خَاطَرَشْ مَاتْزَوَّجْتَشْ بَكْرِي، وكي فَتْ الثَّلاثِينْ جَابْتْنِي وَاحْدَة جَارَتْنَا، و*même* اللّي كُنْتْ شَابّة مَاكَّاشْ عَنْدِي الزْهَرْ، مَاخْطَبْنِي حتىَّ وَاحَدْ، وَتْأَمِّنِي كْرِهْتْ وْقُلْتْ أَنَا قْاَعْ مَا نَتْزَوَّشْ، بَصَّحْ الرّاجَلْ كِيمَا دَعْوَة ْالشَّرْ تَلْحَقْ تَلْحَقْ، ومَلِّي جِيتْ وَطْلَبْتْ الكسّابة كِلّي حْيِيتْ، وْمَا طَوّلْتَشْ وْجَابْ لي رَبّي مَكْتُوبي،وْعَرْسِي مُورَا الْعِيدْ لَكْبِير، وأَنَا جِيتْ اليوم بَاهْ نْقِيسْ السُّكَّرْ والحنَّة وْنْقْلَعْ الكسّابة عي بَاهْ نَتبَرّكْ بِيها عْلَى خَاطَشْ قَالْ شْبَابْ"، ونتبيّن من هنا أن مبحوثتنا هذه، مرت بقلق المستقبل خصوصا حين تجاوزت سن الثلاثين، مع أنها كانت تملك كل مكونات المرأة المقبولة، من هنا تعلقت بالأمل مع استخدامها لطقس الكسّابة، خصوصا وأنها مرت بمرحلة إحباط كبير، وشعرت بأنها لن تتزوج أبدا، وتحقق أملها بخطبتها، وما زيارتها في الموعد المحدد إلا اعترافا بالطقس وتحيين لمشاعر الأمل في نفسها.فالمرأة المقبولة اجتماعيا هي المرأة المتزوجة، والعانس تلاحقها دائما علامة استفهام، ونظرا لأهمية الزواج فإن الفتاة التي لم تلق "مكتوبها" بعد، تخضع دائما لصراعات نفسية واجتماعية يفرضها عليها المجتمع ويلاحقها بها دائما كما تلاحق اللعنة صاحبها، على رأي المثل الشعبي القائل" تْزَوْجي لا يْقُولُو بَايْرَة، وَوَّلْدي لا يْقُولُو عَاقْرَة". والملاحظ أن الزواج هنا يكون محاولة لإسكات القائلين من المجتمع وهي الفئة التي تلاحق بنعت كل واحدة لم تتزوج أكثر مما هو تعبير عن رغبة داخلية تريد الفتاة تحقيقها والتي لا مجال للفتاة سوى أن تكون متزوجة، لأن الزواج ضروري لاستمرار الحياة، إذ تقول إحدى المبحوثات "بَايْ نْدِيرْ حْيَاتي" أي أريد أن أصنع حياتي، وكأن الحياة عند الفتاة تبدأ منذ زواجها لا قبل ذلك.

هكذا نجد الفتاة "البائر" أو العانس تحاول دائما محاربة ضغط تأخر زواجها بالتعويض والاهتمام بلباسها ومظهرها، لعلها تستطيع لفت الانتباه إليها، وحتى لا يقال "لَالِيَاثْها صْغَارْ غْليهَا وطَارُو بالرّجَالْ" على حد تعبير إحدى المبحوثات، أي حتى لا تقع عرضة للسخرية والإستهزاء أمام الملء بأن نظيراتها الأصغر سنا تزوجن قبلا منها وبقيت هي؛ وأمام هذا الوضع تحاول الفتاة أن تتخلص من كل الرواسب الكامنة في عقلها الباطن لأنها أغنى وأخطر من الضغوط التي يمارسها عليها المجتمع، والتي يمكن أن تلمسها بسهولة إذا استخدمت عقلها الواعي، ذلك أن رواسب عقلها الباطن مراوغة وغامضة وزئبقية ومعتمة، وقادرة على وضعها في موقف مضاد لآمالها وطموحاتها دون أن تدري. (راغب، 2003، 661-662).

ويعد طقس الكسّابة أيضا منفذا لتحطيم "المانع" أو العارض الذي يلاحق الفتاة التي وصلت إلى سن الزواج، "باشْ يتْحرّكْ مكْتوبي اللّي راهْ حابسْ"، فمن خلال الممارسة التعبيرية لطقس "الكسّابة" نجد أنها تحمل في طياتها أنماطاً مختلفة من الرمزية، كما يجوز عدها رموز اتصال غير ناطقة، فهناك قطف الزهرة الصفراء، والخاتم، والنزول إلى الشاطئ، والدخول في ماء البحر، والوصول إلى القلتة التي تشبه المغارة، وإشعال الشموع، والزغاريد، ورمي الحناء والسكر، ثم العودة إلى الشاطئ والخروج من الماء المالح، مع العلم أن مكان النزول إليها ليس بالأمر السهل حيث كثرة الصخور المنتشرة في محيطها غالبا ما تجعل الفتيات تسقط في الماء، فتبلل ثيابهن ومنهن من تجرح، وتعتبر هذه العملية بمثابة تطهير المرأة من كل الشوائب والعكوسات التي لحقتها منذ نعومة أظفارها، وهي كلها أشكال تعبيرية مختلفة مقترنة بنماذج لآليات دفاعية من مثل التماهي والتوحد مع شخصية بطلة الأسطورة التي رمت بنفسها في البحر وتقمص دورها، والتي يمكن اعتبارها "عملية نفسية يمثل بواسطتها مظاهر أو خصائص أو صفات شخص آخر، ويتحول كلياً تبعاً لنموذجه" (لابلانش وبونتاليس،1985، 198). فالمكان مخصص لطرد شبح العنوسة عن زائراته والشائع عنه أن" كل من تقصده من الفتيات تتزوج مباشرة" مما يجعله قبلة مختلف الفتيات اللاتي فاتهن سن الزواج لممارسة طقوسه للتخلص من الركود والتعطيل ولعله يكون وسيلة للحصول على زوج مناسب، تنهي به قلقها والصورة المشاعة عنها وبذلك تدخل إلى عالم آخر أو مرحلة مهمة من الحياة والوصول إلى نموذج المرأة المتزوجة.

وما يمكننا استنتاجه أن القلق الذي تعيشه الفتاة التي هي في سن الزواج أو لم تتزوج بعد هو قلق اجتماعي يعود إلى التنشئة الاجتماعية والأسرية المتشبعة بهذه المفاهيم ويقوم المجتمع بصقلها في ذهنها وتسيطر عليها إلى درجة اقتناعها بأن دورها في الحياة لا يتحدد إلا بالزواج والقدرة على الإنجاب. وبناء على ذلك فإنه يتبين أن **"**الكسّابة طقس جمعي نسائي، تدل رموز ممارساته على علاج جماعي للاضطرابات النفسية التي تعاني منها الفتاة المستغانمية لعلاج الضغوط الحياتية اليومية وتنفيسا عمليا للقلق الذي يغرسه المجتمع فيها".

خاتمة:

ما يمكننا استنباطه من هذه النتائج أن طقس الكسّابة طقس نسائي بلا نقاش، ظاهره احتفال بقدوم الربيع وبدء فترة التجدد والخضرة والخير، وباطنه محاولة كسب نسوي لتجديد الحياة لدى الفتاة التي هي في مرحلة الزواج أو من فاتتها المرحلة، فهو تلك القوة المتسلطة التي لازالت تجرّ النساء بمختلف طبقاتهن سواء الثقافية أو الاجتماعية خلفها، وتحفز استعدادهن لتصديق أي شيء يحكي أو يتحدث عنها حتى وإن كان ذلك غير منطقي وغير عقلاني، فهو من الإستراتيجيات الموسعة للتعبير عن طموحات فردية في الباطن، تسر بها كل ممارسة للطقس، وهو تفاوض اجتماعي يشكل لهن مخرجا من قلق وعبء الحياة اليومية، بل إن التقمص بروح جنيّة المكان أو بطلة الكسّابة من خلال تطبيق الطقس يعد تصعيدا للإضطرابات النفسية التي تعاني منها كل فتاة تأخر زواجها في شكل جماعي يشكل نوعا من الدعم النفسي لأنها ستجد نفسها تشترك مع الكثير ممن جئن لممارسة الطقس واستشعارا للراحة النفسية التي تخفف عنها وطأة هيمنة ضغط المجتمع، فاللجوء إلى طقس "الكسّابة" يعد البديل أو التعويض الحقيقي للفشل في تفسير الوضع الذي تعيشه المرأة تفسيرا واقعيا أو في حالة عدم تقبله وإنكاره رغم واقعية التفسير الذي توصل إليه. فهو هروب من واقع لا تستطيع تغييره بطرق واقعية فتلجأ إلى تغييره بطرق غير واقعية. كما يعتبر أيضا علاجا جماعيا لا محالة يبقى تأثيره ملازما للفتاة التي تأخر زواجها من خلال مراحل ثلاث، قبل الطقس من خلال عقد العزم والاستعداد النفسي وتبييت النية ثم أثناء الطقس عن طريق الحضور الفعلي والقيام بممارسة خطوات الطقس التي تظهر فيها العزم على التغيير والوصول إلى الحل، وأخيرا بعد الطقس حين يرافقها كل من الدعم الموجب والطاقة الإيجابية التي تحملهما الفتاة معها في شكل الزهرة الصفراء، وهي كلها خطوات تشكل علاجا جماعيا نسويا من أجل محاربة القلق بين ما هو موجود وبين ما هو مرجو، وبين ما يمكن نعته بالعقبات والعوارض التي تصادفها الفتاة المستغانمية في واقعها المعاش.

المراجع:

1-ابن منظور، ب.ت: لسان العرب (1 / 716) دار صادر، بيروت

2- معجم المعاني الجامع معجم عربي عربي (معنى أمل)-http://www.almaany.com/ar/dict/ar/

3-لابلانش، جان وبونتاليس، ج.ب، 1985: معجم مصطلحات التحليل النفسي، ط 3، ترجمة مصطفي حجازي، ديوان المطبوعات الجامعية.الجزائر

4-ويكيبيديا الموسوعة الحرة (النية) : https://ar.wikipedia.org/wiki/

5-أبوحامد محمد (2015) جريدة الدستور،العدد 2866، الثلاثاء 15 سبتمبر2015 الموقع:
http://www.dostor.org/893391

6-التليدي عبد الله بن عبد القادر (2003): المطرب بمشاهير أولياء المغرب، ط4، ، الرباط، دار الأمان، ص: 167.

7-الحاج بلقاسم (2011): النظام الأبوي الجزائري ومظاهر تغيّر المكانة الإجتماعية للمرأة .مجلة العلوم الاجتماعية، الموقع:
https://sites.google.com/site/socioalger1
8-الزاهي، نور الدين،(2005): *المقدس الإسلامي*، الدار البيضاء- المغرب، دار توبقال للنشر،ط1.
9-السلطان، فهد بن سلطان (ب.ت): المنهج الإثنوغرافي، رؤية بحثية تجديدية لتطوير واقع العمل التربوي. الموقع:
http ://faculty.ksu.edu.sa/alsultanf/Publications1/%.pdf عوينبتاريخ 2015/10/14
10-الشقيري عبد المنعم (ب.ت): الأسس الثقافية للدين عند كليفورد غيرتز بين طلال أسد وماكس ڤيبر، مؤسسة دار الحديث الحسنية،
http://www.ribatalkoutoub.ma/index.php?view=article&catid=119%
11-الغدامي عبد الله(1998): النص الأزرق، هل الرواية رجل أبيض، مجلة فصول رقم16، العدد4، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
12-الكيلاني شمس الدين (1998): من العود الأبدي إلى الوعي التاريخي-الأسطورة، الدين، الإيديولوجيا، العلم- بيروت. دار الكنوز الأدبية.ط1.
13-اللحلح أحمد عبد الله، مصطفى محمود أبو بكر(2002): البحث العلمي، الدار الجامعية، الأسكندرية.
14-المحواشي منصف (2010): الطقوس وجبروت الرموز: قراءة في الوظائف والدلالات ضمن مجتمع متحوّل ./ Insaniyat ,
إنسانيات, [En ligne], 49 | 2010, mis en ligne le 06 août 2012,
Novembre 2015. URL : http://insaniyat.revues.org/433103 consulté le
15-المركز الفلسطيني للإرشاد(2015):
http://www.pcc-jer.org/new/page.php?page_id=13
16.الهويش،فاطمة خلف،(2015): البناء النفسي للعانس، دراسة حالة إكلينيكية، مجلة دراسات نفسية وتربوية، مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربوية، جامعة ورقلة، عدد 14 جوان.ص ص 91-106.
باشيخ أسماء (2014): مؤثرات التغير الإجتماعي والواقع الزواجي بالجزائر (سير نحو الفردانية)، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد الثالث، أكتوبر، ص.ص 127-140 الموقع:
http://jilrc.com/wp-content/uploads/2014/10/3-%
17-بوزيدة عبد الرحمن وآخرون(2005) :قاموس الأساطير الجزائرية، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، البرنامج الوطني للبحث: السكان والمجتمع.
18-غانم محمد حسن (2011): المرأة واضطراباتها النفسية والعقلية، القاهرة.إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع.ط1.
19-جعفر عبد الوهاب(1989): البنيوية في الأنثروبولوجيا وموقف سارتر منها، دار المعارف، السكندرية.
20-حامد أمال النور(2011): الرمزية من منظور التحليل النفسي، موقع الدكتور سليم.
http://www.dernounisalim.com/tag/%

21-دوروس ومحاضرات في علم الإجتماع جميع الفصول جامعة القاضي عياض مراكش (2012): التنشئة الاجتماعية .http://socio-kech.blogspot.com/2012/05/blog-post_16.html

22-راتب أسامة كامل (1997): علم نفس الرياضة، المفاهيم – التطبيقات .ط1 القاهرة .دار الفكر العربي.

23-راغب نبيل (2003): موسوعة النظريات الأدبية. الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1.

24- سعيدي محمد (1995): من أجل تحديد الإطار المعرفي والاجتماعي للمعتقدات والخرافات الشعبية –ظاهرة زيارة الأولياء والأضرحة نموذجا- مطبوعات مركز الأبحاث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر.

25- عباد أحمد، (2006): مدخل لمنهجية البحث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

26-عباس جمال (2008): التحضير النفسي الرياضي في ضوء الثنائية الجدلية البدنية- الروحية في الوسط الرياضي النخبوي الجزائري، أطروحة دكتوراه في الإرشاد النفسي الرياضي النخبوي، معهد التربية البدنية والرياضية، جامعة الجزائر.

27-عبد العظيم حسني إبراهيم (2013): في سوسيولوجيا المعتقد الشعبي: نظرة عابرة الحوار المتمدن- العدد: 4052 - 2013 / 4 / 4 http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=352738

28-عبد الغني عماد (د.ت): العادات والأعراف والتقاليد والتراث الشعبي في العلوم الإجتماعية.

http://www.tourathtripoli.com/phocadownload/dirasset_fi_3ilm_alijtima3_al3am/al3adet%

29-عبد المطلب محمد (2006) :الأدب النسوي والثقافة، مجلة تايكي، العدد 27 http://www.alghad.com/articles/

30-عبد الهادي جلاله ماجده حسن (2001): المعتقدات الشعبية الشائعة في تنشئه الأبناء دراسة مقارنة بين الأمهات الريفيات الأمهات الحضريات، رسالة ماجستير معهد الدراسات العليا للطفولة "الدراسات النفسية والاجتماعية ماجستير 2001، موقع مركز النظم العالمية لخدمات البحث العلمي http://www.alnodom.com/index.php/

31-عرفات فضيلة (2011): المرأة ومشكلة العنوسة، موقع كنانة أونلاين: https://kenanaonline.com/users/ahmedkordy/posts/240508

32-علاق كريمة ومناد سميرة (2014): "الكسّابة ": من عادات وطقوس استقبال الربيع بمستغانم، دراسة نفسية-اجتماعية عن التراث الشعبي المستغانمي .تأليف جماعي:الموروث الشعبي والهوية الوطنية. دفاتر مخبرية، تصدر عن مخبر حوار الحضارات، التنوع الثقافي وفلسفة السلم، جامعة مستغانم، الجزائر. ص ص 127-167

33-كاكي عبد الرحمن (1967): كل واحد وحكمو، المسرح الجهوي لوهران.

34-هولتكرانس إيكه (1973): قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلورية، ترجمة: محمد جوهري وحسن السامي، ط2، دار المعارف، القاهرة.

35-Le Robert illustré &internet ; Edition 2016 : (Identifier)

36- Blanchet ; Alain ;et Autres ;1985 : L'entretien dans les Sciences sociales. Bordas. Paris.